عاشقةُ الليل

مهداه لروح الشاعرة العراقية / نازك الملائكة

اختلفت كثيراً جداً عن صورتها الأصلية المنطبعة على أغلفة الكتب والذاكرة ، كانت تعرف أننى أطل من النافذة الزجاجية التى تفصل غرفة العناية المركزة عن الممرات خارج الغرف فرغم قناع التنفس الذى ألصقوه على وجهها، التفتت مرتين إلى حيث كنت أقف، أترقب الدكتور والمساعد وهم يقومون بالعناية بها، كانت هيئتى الرسمية كضابط وكاب الشرطة على رأسى، لا يدعان مجالاً للشك فى أننى أقوم بواجب رسمى تجاه شخصية شهيرة مثلها على الأقل مشهورة بالنسبة لى، فلا أحد تقريباً فى مصر يعرفها وهكذا الشعراء فى عالمنا اليوم لا يعرفهم تقريباً أحد، ابتسمت وأنا أتذكر قائد حرس مستشفى الشرطة وهو يقول لى مزمجراً: أرجو ألا تعتبرنى جاهلاً من هى نازك الملائكه حتى يعين لها حراسة خاصة طوال وجودها هنا.. أخبرته ، إلا إنه ظل غير مقتنع، إنه لا يعرفها ولم يسمع بها إنه لم يرها قط قبل اليوم كانت مريضة فى العراق... بلدها محتل ينزف والتفجيرات فى الشوارع والأسواق، الأدوية نِفذت والأطفال تموت والنساء، وهى تقاوم، روحها وقدرها أن تأتى هنا ظلت فى ذاكرتى عمراً بأكمله، أعرفها، نعم منذ

الإعدادية منذ كانوا يسمونها فى الرياض حيث درست سنين من عمرى، عاشقة الليل التصق بها الاسم منذ الديوان الأول، حتى الآن أتذكرها، ما قالت وما روت أتذكر أبيات رددتها خلف مقاعد الدراسة هناك وحين التحقت بالشرطة وحين عينت بالصعيد فى مهام ليلية دامسة الظلام: هى ياليل، فتاة شهد الوادى سرُاها، أقبل الليل عليها فأفاقت مقلتاها، ومضت تستقبل الوادى بألحان أساها، ليت آفاقك تدرى ما تُغنى شفتاها.. آه ياليل وياليتك تدرى ما مُناها، حين انتهى الطبيب وغادر الغرفة التف حوله العديد من مثقفى بلدها، مثلها جاؤا إلى القاهرة، خلف زجاج النافذة الفظه خلف الباب، بارده تزحف ساحبه ضجرى المرتاب، إنها النهاية، نهاية السلم انكسرت العيون ورغم ثقل اللهجة العراقيه على أذنى، أدركت إنه لا فائده، فى اى وقت من الأن :مرت أيام لم نلتقى، انت هناك وراء مدى الأحلام، فى افق حف به المجهول، وأنا أمشى وأرى، وأنام، أستنفذ أيامى وأجر غدى المعسول، فيفر إلى الماضى المفقود، أيامى تأكلها الآهات متى ستعود..، تنقلت بين الغرف والمرضى والزائرين، جاء كثيرين ممن سمحت لهم وظائفهم المرموقه بالحضور، لم يلتقوا بها نظروا إليها من خلف الزجاج، وقفت معهم، فى كل مره أرى العيون ترصد لحظات الحياه الباقيه فى جسدها الرقيق الهش كنتف الثلج أصوات النهاية تفصح عن كلمات: يا مصر شعورى مزقه ما فعل الموت، الصدر يعلو ويهبط، والأنفاس تتقطع، حياة حافلة.. جلست حتى انهارت الأحلام العربيه

فى البعث من جديد، أحضرت أكثر من ديوان لها، حتى يمكن لرئيسى أن يتعرف عليها، لم يكن شغوفاً مثلى بقراءة الشعر، إلا إننى لمحت فى هزات رأسه.. رضاً بما فعلت... ترك الدواوين بين يدى وقت الخدمة الليلية وهو يقول ربما أحببت أن تستعيد الأيام الماضية، أطمئن على أن كل شىء تمام .. وانصرف، بين الطرقات، جلست على حواف عالمنا وعالمها المجهول قرأت قصائدها، كترانيم وأناشيد طقوس، ابنه بابل فى رحاب معبدنا، تمشى ببطء وسط بهو الأساطين، جاءت مرات أمس ومرات من قبل ومرت من هذا الباب فتحتهُ أطلت عليَّ وأنا غارق فى قصائدها الشعرية: أن أكن عاشقة الليل فكأسى مشرق بالضوء والحب الوريق، وجمالُ الليل قد طهر نفسى بالدجى والهمس والصمت العميق، أبداً يملأ أوهامى وحسى بمعانى الروح والشعر الرقيق، فدعوا لى ليل أحلامى ويأسى ولكم انتم تباشير الشروق قالت لى المرضة بعد أن خرجت من غرفتها كما لو أنها أرادت أن تبادئنى الحديث : - أبدلت المحاليل واطمئنيت على كل شئ.. انتظرت حتى ترى فى عينى ردى ولما لم يحدث قالت ـ: اتقرأ لها مثلى.. تنبهت إنها تحادثنى وعلى عادة رجال الشرطة تفحصتها من أخمص قدميها.. ثم قلت ـ: نعم ألكى فى الشعر أنت أيضاً ـ: بل أحفظ لها ولغيرها.. ولم تشأ أن تضيع الفرصة فأخذت تقول هامسه جزء من قصيدة غسلا للعار: "يا جارات الحارة، يا فتيات القرية الخُبز سنعجنه بدموع مآقينا، سنقص جدائلنا وسنسلخ أيدينا، لتظل ثيابهم بيض اللون نقية، لا

بسمة، لا فرحة، لا لفتة فالمديه ترقبنا فى قبضة والدنا وأخينا وغداً من يدرى أى قفار ستوارينا غسلاً للعار."... دون أن أشعر مددت لها يدى حتى أجلستها إلى جوارى، ولم تزل تنشد حتى مرت ساعة، عندها تنبهت إلى أننى يجب أن أقوم بجولة فى المستشفى على من هم تحت أمرتى، قمنا ومضى كل منا فى طريق يخالف الآخر، قالوا أنها أفاقت.. وتعرفت على من وما حولها.. وقالت كلمات، أشياءٌ لذويها ومن حضر من الأطباء.. لم يكن هناك الكثيرين حولها ممن عرفه شبابها وصباها، فلقد عمرت إلى ما بعد الثمانين.. قالت لى المرضة إنها بدت سعيدة باسمة.. تقرأ فى وجوه الآخرين شىء ما.. لم تتغنى به أبداً فى أشعارها.. وحين رحلت وخلت الغرفة استعدنا فى ختام حديثنا عنها أبيات قولها "فوداعاً من قلب عاشقة الليل وداعاً وأنت يا موت هيا، هكذا تذبل الحياة ويخبو لحن أحزانها على شفتيا" .. أغلقنا الباب ومضينا سوياً نتبادل الذكريات، رماد وشظايا الأمس .